الخطط والآثار

في بعض بلاد الشام

للاستاذ وصفي زكريا

لا مراء في ان اكثر بلاد الشام لا تزال محرومة البحث مجهولة الوصف قل ان نجد فيها من يحيط بخططها كما ينبغي . واعني بالخطط جغرافيتها الطبيعية والجيولوجية والعمرانية واماكنها التاريخية ومبانيها الاثرية وشؤونها الاجتماعية . كما قل من يهتم بهذه الأمور ويكلف نفسه عناء السياحة والتجوال والبحث والسؤال وتأليف كتاب او تحرير مقال في العربية عنها وطبعه ونشره . وما الف في هذه الموضوعات لم يزد عن حاجة المدارس وبرامجها ولم ينقع غلة الباحثين والمستزيدين .

بينما الغربيون يهتمون ويتكلفون لا في بلادهم واورهم التي عددناها فحسب ، بل في البلاد العربية كلها ، ومنها البلاد الشامية بحواضرها وبواديها وعامرها وغامرها وصامتها وناطقها . وقد وضعوا عنها في لغاتهم المختلفة منذ عشرات السنين ما لا يعد من الكتب والخرائط والرسوم وما برحوا يضعون وينشرون . وبعض هذه الكتب ادلة للزوار والسائحين او رحلات للرواد والمكتشفين ، وبعضها مقالات في مجلاتهم ونشراتهم الدورية عن اماكننا ومشاهدنا الغابرة والحاضرة وتقاليدنا وعاداتنا وازيائنا وانسابنا وأحزابنا وحتى عن الكتابات المزبورة في بعض خربنا ومقابرنا وعن اللهجات المحلية في بعض نواحينا وقرانا وغير ذلك مما لو جئت اعدده لضاق بي المجال .

واكثر ما وضعوه دقيق البحث جميل البيان كبير النفع جدير بأن يترجم الى العربية لتعم

فائدته من لا يعرف اللغات التي كتب فيها . وعندي ان القيام بهذه الترجمة اولى من طبع ونشر بعض المخطوطات ودواوين الشعر التي اكل الدهر عليها وشرب ولم يبق لأحد فيها حاجة . وذلك ليأخذ العرب عن الافرنج ما قصروا عن الاحاطة به من احوال بلادهم وشعوبهم وآثارهم ويروا ويقتبسوا اساليب البحث والوصف للمناظر والأماكن والمباني والخطط بلغة العلم والواقع .

وقد حفزني هذا الفراغ في المكتبة العربية الى تأليف كتاب في سنة ١٩٣٤ سميته « جولة اثرية في بعض البلاد الشامية » سلكت فيه سبيل الرواد والجوالين ، فوصفت بعض المسالك والخطط والآثار والمدن والقرى الممتدة في شمالي بلاد الشام حتى ابواب دمشق فقط . لكن حتى هذا الكتاب بعد ان مضى عليه ست عشرة سنة وتبدل خلالها كثير من المعالم والمشاهد المذكورة فيه امسى في حاجة الى ان يستدرك عليه ويوسع ويعاد طبعه . فما بالك بما مضت عليه قرون من كتبنا ومعاجمنا الجغرافية القديمة ، وهي على جلالة قدرها لم تعد وافية بالحاجة . هذا الى ان الأبحاث العائدة الى بقية بلاد الشام التي لم تتناولها تلك الجولة الأثرية ظلت دون تدوين ونشر وظلت الأماني تغاديني وتراوحني في اكمالها اجابةً لطلب بعض ذوي الفضل . فكانت مشاكل الحياة والمثبطات التي تعترض في بلادنا التأليف والنشر في مثل هذه الموضوعات الجدية تعيق الى ان صدرت هذه المجلة الأثرية ، فعولت على ان اجعلها عمدتي في تحقيق جزء من تلك الأماني ان لم يكن كلها .

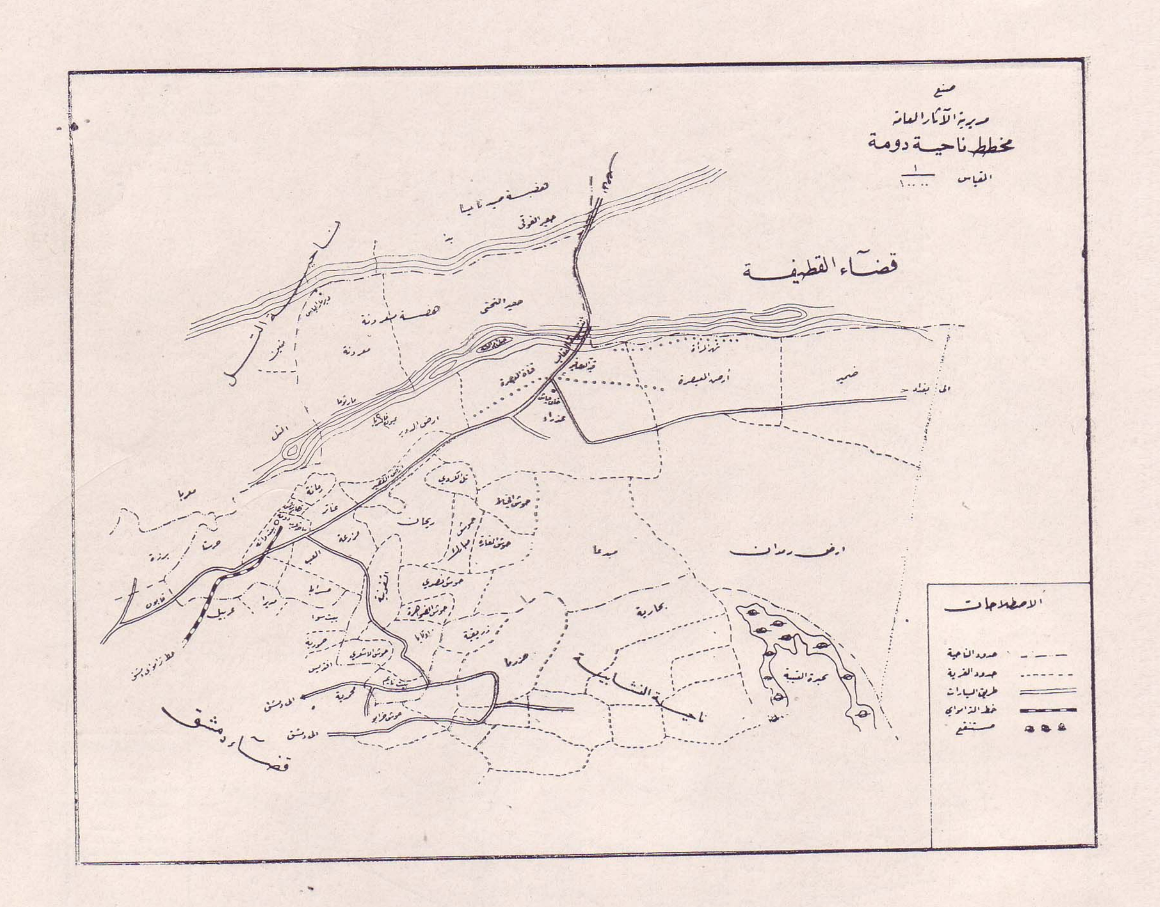
ولقد بدا لي ان ابدل اسلوب الجولة السابقة فجعلته إيضاحياً توصيفياً . وتركت العاصمة دمشق لمن عسى أن يكتب عن خططها وآثارها واوصافها اكثر مني واحسن واقتصرت على ميادين لم يجل فيها غيري بعد — على ما اعلم — وهي الأقضية والنواحي والقرى التي ضنّ عليها كتابنا ببحثهم ، فتناولت الآن محافظة دمشق وأقضيتها ونواحيها ودرجت نبذاً متقطعة من المؤلف الذي هيأته تناسب منهاج هذه المجلة ، وهي وصف عمراني تاريخي اثري لبعض الاماكن التاريخية والمباني الأثرية وقد بدأت بقضاء دومة على النحو الآتي :

دومة وما حولها

وصف طريق دومة :

إذا خرجت بالسيارة من حي القصاع الواقع في شرقي شمالي دمشق واتجهت بعد جسر تورة ومفرق قرية القابون نحو الشرق وسلكت الطريق المعبدة الذاهبة الى حمص وحماه وحلب ، تمر من بين بساتين وحقول متنوعة لايخلو قيد شبر منها على مدى السنة من الحرث والزرع والغرس

اللوح - ٣١ -



مخطط ناحية دومة .

والري ، وهي تخص قرى جوبر وعربيل وحرستا الى ان تبلغ بعد اجتياز اثنى عشر كيلومتراً بلدة دومة .

وطريق السيارات هذا ومثله طريق الترام الموازي له تقريباً وكلاهما يشق شمالي الغوطة ومزارعها ومغارسها الغناء ، هما متعة الأنفس للراكبين أو المتنزهين أو الجالسين في المقاهي والمغاني التي تقام على جانبيهما مدة موقتة في فصل الربيع ايام ابتسام الورود وتفتح أزهار المشمش واخضرار الزروع . وقد ازداد طريق السيارات المذكورة روعة وعمراناً بما نشأ وما برح ينشأ على جانبيه من معامل الغزل والنسيج والزيوت والكبريت ، وهي تعج بالعمال وتدل على نهضة صناعية قوية تبشر بالخير العميم لبلاد الشام .

حاضر دومة :

ودومة هذه التي جعلناها مدار البحث قرية كبيرة او بليدة هي الآن مركز القضاء المسمى باسمها وحاضرة الغوطة الشرقية واكبر قرى الغوطة كلها بنياناً وسكاناً والنسبة اليها دومي ، وهي تعلو عن سطح البحر ٦٥٠ متراً وتقع في الشمال الشرقي من دمشق وسط سهل فسيح تحيط بها مغارس الزيتون والمشمش الوارفة بظلالها وكروم العنب الزاهية بخضرتها . وتحد دومة من الغرب قرية حرستا ومن الجنوب قرية مسرابا ومن الشرق اراضي الدوير والقصير وقريتا الريحان والشفونية ومن الشمال قرية التل . وأراضيها واسعة تقدر بـ ٥٥٠٠ هكتار يستغلها الدوميون استغلالاً حسناً في الجملة وتكاد لا تكفيهم . ومن ثم كانت دومة من امهات القرى الزراعية ذات النفوس الكثيرة حيث يبلغ سكانها نحو ٢٠٠٠٠ نفس .

وقد كان عمران دومة لمضي خمسين سنة متأخراً لا يختلف عما هو عليه في بقية القرى . ما خلا بضعة دور على الطراز الدمشقي القديم . ثم طرأ على دومة تحسين ظاهر من بعد سنة ١٩٢٩ لا سيما في جهتها الغربية قرب دار الحكومة الحديثة التي بنيت وقتئذ وعقبها بناء دائرة الدرك والسجن والمستشفى الكبير وبعض الدور الحديثة الطراز . أما حالة الازقة في داخل دومة فقد كانت مهملة من ناحيتي التنظيم والتنظيف والتعبيد ، لكثرة الوحول والمياه في الشتاء والغبار والأقذار في الصيف . أما اليوم فقد حسنت الحالة في الجملة فالطرق عبدت وغرزت بالحجارة المدملكة وزادت العناية بالكنس والتنظيف . ويظهر ان القدماء مشوا في تخطيط قرى هذه الأنحاء حسب مجاري الأنهر . ولذا تجد التعاريج والالتواآت كبيرة جداً في دومة وقراها بالاضافة الى الضيق والاكتظاظ . وقد ظل هذا الحال مستمراً الى آن فتح في دومة

شارعان عريضان مستقيمان أحدهما يخترق دومة من الغرب الى الشرق والثاني من الشمال الى الجنوب ، وجعل لدومة مخطط عمراني فرض ان يكون في طرفيها الغربي والشرقي ازقة وشوارع مستقيمة اذا بنيت فيها دور خطت دومة نحو التنظيم والعمران . وفي وسط الشارع المستقيم الممتد من الغرب الى الشرق سوق البلدة وفيه حوانيت عديدة للسلع والمؤن الضرورية من ملبوس ومأكول وادوات بيتية وزراعية ونجارون وحدادون وسراجون وأمثالهم من الصناع اللازمين للأعمال الريفية . وفي هذا الشارع ايضاً بضعة مقاهي وساحة لوقوف السيارات الصغيرة والكبيرة وحافلات الترام . وهذه لا تنقطع عن الذهاب والاياب الى دمشق والقرى المجاورة .

تاريخ دومة :

ليس لدومة تاريخ خاص . ولم نعثر على ذكرها فيما قلبناه من الاسفار الا ماجاء بالعرض دون ان يفي بالغرض . ولم يترك احد من الغابرين فيها آثاراً خالدة يستدل بها على مجدها القديم ان صح التعبير . ولا غرو ، فهي قرية زراعية بيوتها من اللبن السريع الزوال على قرب جبل قلمون ووفرة احجاره . واهلها بسبب دواعي المقام والعيش حراثون كرامون قضوا العصور الخوالي وما زالوا في الزرع والغرس دون غيرهما من الأعمال . حتى ان الجغرافي العربي الكبير ياقوت من اهل القرن السابع الهجري لم يخصها في كتابه معجم البلدان الا بكلمة صغيرة هي قوله : دومة بالضم من قرى غوطة دمشق ينسب اليها جماعة من رواة الحديث .

ولا ريب في ان تاريخ دومة وقرى الغوطة والمرج المحيطة بدمشق يتبع تاريخ دمشق . فكان يصيبها ما يصيب دمشق نفسها من رخاء وشقاء . والفرع تابع للاصل في كل الامور . ولعل حظ الفرع من اهوال التاريخ اكثر من الاصل في اغلب الاحيان لان القرى مكشوفة ضعيفة امام دواعي الهول اذا قورنت بالعاصمة المحصنة الملآنة باولى القوة والتدبير .

وغاية ما يستنتج من تواريخ دمشق ان دومة والقرى المحيطة بها في عهود الدول السابقة كانت تقاسي كثيراً من شدائد المحاصرات والمعارك الجارية حول دمشق ومن جور بعض الولاة والحكام وثقل الضرائب والغرامات وتقديم العلائف والمأوى للجند القادم نحو دمشق والخارج منها . وقد اشتدت هذه المزعجات في القرن الماضي حتى طفح كيل البؤس والدين على القرويين « وأوشكت دومة ان تستغرقها الديون وأراد أهلها ان ينزلوا لغريمهم عن نصفها ويبقى لهم النصف الآخر » (١) . فاذا كان هذا حال دومة اكبر قرى الغوطة فما بالك بالقرى الصغيرة النائية في

(١) كتاب غوطة دمشق للاستاذ الكردعلي ص ١٤٤ و ١٤٥ .

المرج او انأى من المرج . فقد كان اهلها لا يجدون مناصاً لدفع دينهم ولا وسيلةً لتقوية ضعفهم الا بالالتجاء لحمى اعيان المدن ومتنفذيها ، فيبيعون قريتهم كلها او بعضها منهم باثمان بخسة . ومن هذا نرى حتى الآن مساحات كبيرة في عدد من قرى قضاء دومة في ايدي بعض الاسر الدمشقية على النحو الذي جرى بكثير من قرى محافظاتنا الشمالية التي هي في ايدي بعض الاسر الحلبية والحموية والحمصية . ومن هذا ايضاً نشأت وبنيت المزارع والاحواش العائدة للدمشقيين قرب دومة وقد سميت بأسمائهم .

وآخر الحوادث الهامة التي شهدتها دومة وادركناها هو ماجرى خلال الثورة الشامية الكبرى التي قامت في وجه الفرنسيين عام ١٩٢٥ — ١٩٢٦ (١٣٤٤ — ١٣٤٥ هـ) فقد اشترك وقتئذ بضع مئات من شبان دومة وشيبها في هذه الثورة الوطنية فجاهدوا وابلوا فيها بلاءً حسناً . وقاست دومة كثيراً من احراق الثوار لدار الحكومة القديمة والدور المجاورة لها وقد كانت وسط البلدة ، ومن انقطاع السبل بينها وبين دمشق وتوالي حملات الجند الفرنسي واشتباكه مع الثوار في ضواحيها وقراها ، وزحف الالوف المؤلفة من اهل تلك القرى الذين هدمت دورهم ونهبت عروضهم واحرقت زروعهم خلال المعارك فلجأوا بقضهم وقضيضهم الى دومة حتى ضاقت ذرعاً بهم ، وفرض الغرامات من البنادق على أهل دومة حين انتهاء الثورة وأخذهم بالقسوة حتى ادوا ذلك .

والغريب ان يكون حظ دومة طوال العصور الماضية قليلاً من اهل العلم والادب فلا يجد ياقوت من ينسب اليها الا جماعة من رواة الحديث كما قال . بينما قرية داريا التي تلي دومة بالكبر كانت ذات حظ اكبر من الفقهاء والخطباء الذين ذكر ياقوت اسماءهم في معجمه ، ولم يؤلف الحافظ ابن عساكر الاجزء واحداً من روايات الحديث لساكني دومة والقصير ومسرابا بينما الف ستة أجزاء من روايات الحديث لساكني داريا (١) .

والأغرب الا يذكر ياقوت وابن عساكر وغيرهما من مؤلفينا القدماء سوى رواة الحديث والفقه والشعر والادب وأمثالها . وكأن كلمة العلم كانت لاتشمل في عرفهم وقتئذ (٢) الا العلوم الشرعية واللغوية والأدبية فقط . اما بقية العلوم والفنون والصناعات التي عليها مدار العيش وقوام العمران ورفه السكان فلم يكن لها محل من تقديرهم وتسجيلهم . فهم لم يذكروا طبيباً ولا مهندساً ولا بناءً ولا نابغة في حرفة او مشغلة . على حين ماحرمت بلاد الشام منهم في اي

(١) كتاب غوطة دمشق للاستاذ كرد علي ص ١٠٦ .
(٢) وحتى في عرف بعض أهل زماننا العائشين في اجواء العصور الوسطى وافكارها .

عصر ، كانت عبقرياتهم تنبثهم في الغالب بالممارسة لا بالمدارسة . ودليله كثرة ماخلفوه من المباني الدينية والعسكرية والآثار الفكرية والمعلومات الصناعية والمحصولات الزراعية البديعة . ولا يبعد ان يكون بعضهم من دومة وامثالها من القرى ، لكن هذا الاهمال اضاع اسمهم وذكرهم .

ويبدو ايضاً ان العلوم الشرعية والأدبية بعد ان انطفأت منذ القرن التاسع والعاشر من بلاد الشام رجعت دومة وكل قرى الغوطة القهقرى فباتت في سبات عميق ، وانقرض اهل هذه العلوم في العهد العثماني كله إلا النادر الذي لجأ الى دمشق ونهل من مدارسها ومدرسيها فنبغ ونفع واستحق تخليد الاسم والذكر . فمن هذا النادر عالمان وشاعران فقط ظهرا في النصف الأول من قرننا الهجري الحالي . فالعالمان هما الشيخ محمد عثمان المشهور بخطيب دومة والشيخ عبد القادر بدران . والاثنان كانا فاضلين ومتبحرين في التفسير والحديث والفقه واللغة . والاول لم يؤلف . لكن الثاني فوق تلك العلوم كان اديباً ومؤرخاً وصحافياً ومؤلفاً خصب الانتاج . واشهر مؤلفاته تهذيب تاريخ ابن عساكر وكتاب منادمة الاطلال ضمنه تاريخ مدارس دمشق ومعاهدها الأثرية . اما الشاعران فهما صالح طه وخالد زريق . وهذان أيضاً كانا مجودين في شعرهما . وكان الثاني خفيف الروح رقيق الحال ، له تخميس جد بديع لقصيدة اراك عصى الدمع ، ومن نظمه في شكوى دهره :

هاك بيتي لو اتاه جرذ مات طاوٍ لم يجد ملتقفا

ولعل النهضة العلمية الحديثة التي نشأت حديثاً في دومة تنجب رجالاً جديرين بان يسجلهم ويترجمهم من يكتب مثل بحثنا هذا في المستقبل إن شاء الله .

المباني الأثرية والمواقع التاريخية :

ليس في دومة آثار تاريخية كما قدمنا في بحث التاريخ . لأن كل ابنيتها من اللبن الذي لا يستقر كثيراً . ويذكر من ابنيتها القديمة الجامع الكبير . ويقال ان هذا بني مكان دير سابق ، وانه كان فيه تمثال حجري لآلهة الشمس . ولا أثر الآن لهذا التمثال . لكن في صحن الجامع تاج عمود كبير لعله من بقايا الدير المذكور .

وفي الجدار الشمالي للصحن على علو بضعة امتار حجر عليه كتابة تاريخية ذكر فيها ما يلي :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من امن بالله وا
(٢) ليوم الآخر . هذا ما أوقفه وحبسه وتصدق به ملك الأمراء آلب
(٣) طغرادكين بهلوان جهان محمود بن بوري بن أتابك حسام
(٤) أمير المؤمنين . لعنة الله على من بدل أو غير القطعتين الأرض
(٥) المتلاصقتين شرق الجسر في شهور سنة احد وثلثين وخمسمائه على مسجد دومة .

تدل هذه الكتابة على أن واقف هذا المسجد وبانيه الأول هو المعروف في كتب التاريخ باسم شهاب الدين محمود بن بوري بن سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين . ومن الغريب أن اسم طغتكين كتب على الحجر المذكور طغرادكين . بينما اجمعت الكتب المذكورة على كتابة اسمه طغتكين اي بدون راء والف وبالتاء بدل الدال . فأيهما أصح ؟

وقد كان طغتكين هذا من رجال ملك دمشق تتش السلجوقي وآتابك أي مربي ابنه دقاق . ولما مات دقاق وهو صغير استولى طغتكين على الحكم وأنشأ الدولة الأتابكية في بلاد الشام التي لم تعمر اكثر من نصف قرن (٤٩٧ — ٥٤٩ هـ) ثم قضى عليها نور الدين محمود المعروف بالشهيد كما فصلته المطولات .

وقد كان هذا الجامع صغيراً بسيطاً بنسبة قرية دومة قبلاً . ولما اتسع عمرانها وزاد سكانها وارادوا توسيعه وتجديده في سنة ١٣١٨ هـ عثر العمال أثناء الحفر فيه على جرة صغيرة مملوءة بنقود ذهبية اثرية ، فانفق القائمون عليه وقتئذ ثمن هذه النقود في سبيله فبرز بشكله الحالي المحمود . والجامع الآن ذو حرم جميل مستطيل الشكل ذرعه ٣٩ × ١٩ متراً وسقفه خشبي مستوى راكب على اقواس عديدة وصفوف من الدعائم المربعة ، وفيه محرابان ومنبر . والصحن أيضاً واسع ذرعه ٣٠ × ١٤ متراً وفيه عدة اقواس مرتكزة على اعمدة . هذا ولا تخلو دومة من بعض الدور القديمة المبنية على الطراز الدمشقي القديم فيها قاعات ذات نقوش وصباغات عربية اثرية .

وفي خارج دومة وعلى اربعة كيلومترات الى شرقها موقع يدعى القصير ، يقال أنه كان فيه قرية آهلة خربت وانتقل اهلها وضمت اراضيها الى دومة . وفي هذا الموقع خان كبير من الخانات القديمة التي كانت مخصصة لقوافل الحجاج والمسافرين . ذكره ابن جبير في رحلته وذكره ايضاً ياقوت في معجم البلدان (القرن ٥ و ٦) .

وقد كان هذا الخان في اواخر العهد العثماني مستودعاً لسلاح جنود الرديف وعتادهم كما جاء في سالنامة ولاية سورية لسنة ١٢٩٨ هـ الى أن استعملته دائرة الصحة في سنة ١٩٣١ م ورممته ووسعته وقلبته الى مستشفى لذوي الامراض العقلية وسمته مستشفى ابن سينا فيه نحو ١٠٠ مريض . ثم بنت إحدى الجمعيات الخيرية الاجنبية مستشفى آخراً كبيراً للمصابين بمرض الجزام . والمستشفيان قائمان في يومنا هذا قياماً حسناً في الجملة .

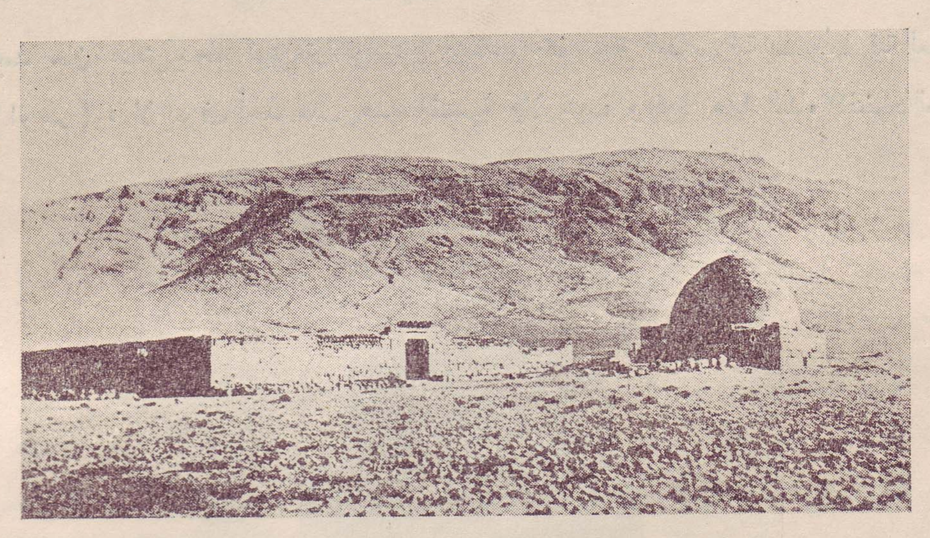
وبعد ان يغادر المسافر مستشفى القصير على يمينه تمر به السيارة بين سهل عذراء الذي جنوبي الطريق وارض الدوير الذي في شماله وكل هـذه الأرض ملآى بكروم العنب ذات

الشجيرات الواقفة الى علو ١و٥ — ٢ متر ومنها ينتج العنب الأحمر الدوماني الذي يتفكه به الدمشقيون بوفرة . ويلمح السائر في شرقي ارض الدوير كواكب عظيمة يتلو بعضها بعضاً لقناة كبيرة مندثرة تمر من شمالي خان عياش وتتجه نحو الشرق لتروي اراضي خربة اثرية بين قريتي عذراء والضمير . وبين كل كوكب وآخر ١٥٠ متراً وطول القناة نحو اثني عشر كيلو متراً ومجراها المنقور في الصخر يمشي فيه الرجل قائماً او راكعاً ، واسم الخربة المعيصرة وهي تبعد عن خان عياش نحو سبعة كيلو مترات . وقد كان بعض احجارها الضخمة المنحوتة نحتاً جميلاً وبعض جدرانها بارزة للعيان أدركتها قبل عشرين سنة وتمنيت أن تبقى ناجية من التخريب المستمر في الآثار ، ولا سيما بعد ان كثرت المزارع في ارض المعيصرة المذكورة وتعددت الآبار التي تمتح مياهها بالغرافات او المحركات وتروي تلك المزارع الحديثة . وهذه الخربة لم يذكرها ياقوت ولم اعثر على اسمها في كتب التاريخ القديمة والحديثة التي راجعتها ، ترى ما اسمها القديم ومتى بنيت ومن بناها وسكنها وجر قناتها العظيمة التي وصفتها وماذا كان يزرع في هذه الاراضي الشاسعة الصفراء العطشى وهل بالامكان اصلاح هـذه القناة وإسالة مياهها القديمة وارواء هذه الأراضي بها واحياء المعيصرة بعد اندراسها ، وكم من الأموال تحتاج . لا جرم ان همة الافراد تقصر عن ذلك ، ولا تقوم به إلا الحكومات والشركات القوية .

وفوق قناة المعيصرة قناة اخرى اثرية تسمى نهر المرأة تسير في لحف الجبل من فوق مزرعة الرمادي العائدة لقرية القطيفة ويبدو مجراها للناظر من بعيد ، تأتي من سفح جبل قاسيون في شمالي دمشق وتسير نحو الشرق من شمالي دومة وعذراء والمعيصرة الى ان تبلغ وتروي قرية الضمير او خربة الماطرون التي كانت شرقي هذه القرية . وربما كانت هذه القناة العظيمة الطويلة تتمة القناة الهائلة القادمة من غربي قرية سوق وادي بردى التي تظهر للعيان ويسير المتتبع في داخلها احياناً في عدة مواقع من الوادي المذكور . فاذا صح هذا التقدير تكون هذه القناة من اعجب آثار بلاد الشام بطولها البالغ ٧٠ — ٨٠ كيلو متراً ولعظمة مجراها وصعوبة نحته وامراره من هذه الصخور الصم وبناء قناطره وانفاقه .

وهناك عيون ماء تنبع من سفح سلسلة الآكام الممتدة شمالي دومة اسمها عيون فاسريا لها ذكر في كتب التاريخ . فقد قالت انها كانت مورد الجيوش القادمة الى دمشق من الشمال . فممن نزل بها الملك العادل نور الدين محمود الشهيد في سنة ٥٤٦ و ٥٤٨ حينما حاصر دمشق واستخلصها من يد مجير الدين ارتق حفيد الأتابك طغتكين السلجوقي الذي تقدم ذكره .

وقبل صعود ثنية العقاب وعند مفرق طريق بغداد وعلى بعد ٢٦ كيلو متراً من دمشق خان قديم اسمه خان عياش (انظر الرسم الذي يحتوي على الخان وقبة البئر وفي شمالهما جبل أبو العته) وهو أحد الخانات العديدة التي كانت مأوى القوافل والحجاج في طريق دمشق - حلب، وهو ذو جدران ضخمة عرضها متر ونصف وفيه رواق ذو اقواس حجرية ووراءها اصطبلات واسعة معقودة. وهو الآن مهجور خراب لا ينزله إلا بعض رعاة المعزى من أهالي قرية رنكوس الجبلية في فصل الشتاء فقط. وقد وصفه ونقل الكتابة المزبورة على عتبة بابه المستشرق الافرنسي السيد سوفاجيه، فقال عنه في مجلة Arts islamica الاميركية المجلد ٧ القسم ١ سنة ١٩٤٠ ما تعريبه:



خان عياش وجبل ابو العته

طول البناء ٥١ متراً وعرضه ٤٣ متراً، له باحة متوسطة مساحتها ٩٤٠ متراً مربعاً وعلى الاطراف الثلاثة من هذه الباحة يمتد رواق معقود، اما الجهة الرابعة التي فيها الواجهة ففيها غرفتان تحيطان بالمدخل، والاولى كانت لمستخدمي الخان والثانية كانت مصلى. اما الباب فمستطيل الشكل، كان يعلوه شرفة فيها خمس مرامٍ لم يبق منها سوى زوافرها. وابعاد عتبة الباب ٢٫٨٠ × ٥٥ سم ذات خمسة اسطر بالخط النسخي المملوكي كتب فيها ما يلي:

بسمله. انشأ هذا الخان المبارك لوجه الله الكريم ورضائه (١) العميم المقر العالى المولوي الاميري الكبيري العالم العادل المجاهد المرابط حسام الدين لاجين الاشرفي المنصوري كافل السلطنة المعظمة (٢) بالشام المحروس تقبل الله منه. وذلك في ايام مولانا السلطان الملك الاشرف العالم العادل المؤيد المظفر

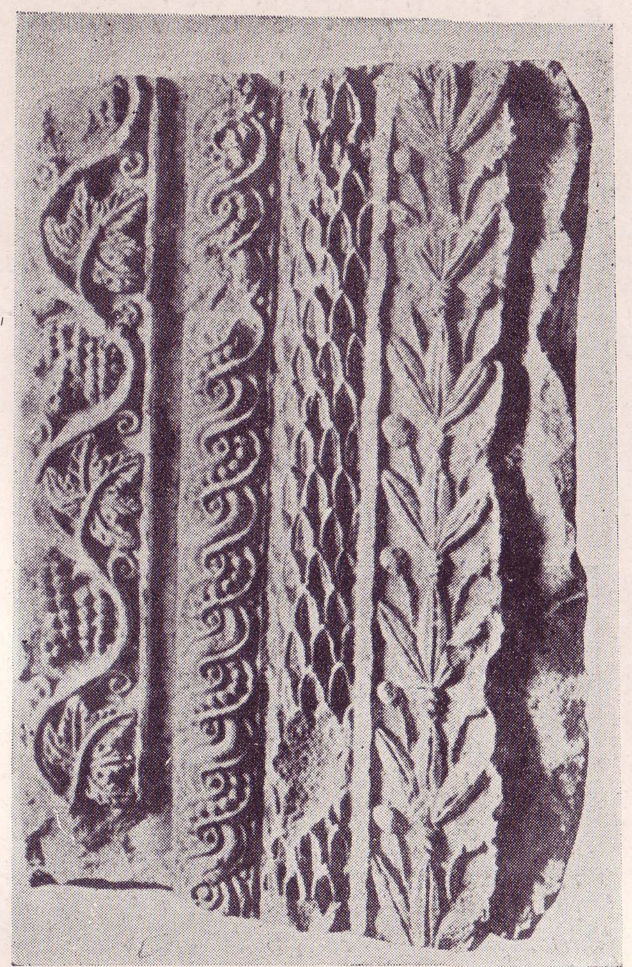
المنصور صلاح الدين سلطان الاسلام والمسلمين أبي المظفر خليل قسيم أمير المؤمنين ابن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي (٣) خلد الله سلطانه وجعله موفقا مؤيداً وخيراً على كافة المسلمين المترددين سرمداً لا يباع ولا يملك ووقف على مصالحه وعمارته وعمارة المسجد فيه ومصنع الماء فيه جميع الحانوتين الذي فيه وجميع الن من الخان الكبير خارج باب الجابية ومن الحوانيت الدائرة (؟) بالخان والمسلخ المجاور له برسم عمارة الخان والمسجد وما يحتاج إليه من الزيت والحصر والحبال والدلاء برسم الصنم وعلى امام يصرف اليه كل شهر اربعين درهما ومؤذن بثلاثين درهما وبواب بعشرين درهما وما فضل يصرف الى الفقراء الواردين والمضطرين المسافر (٥) بن يمر ذلك ابداً على ما يعين في كتاب وقفه وذلك بتولية الفقير الى الله بكتاش بن عبد الله استاذ الدار الحسامي شرع في عمله ثوبه الله في خامس صفر سنة تسعين وستمائة ورفعت هذه العتبة المباركة في ثاني عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة وصلى الله على محمد .

وبعد خان عياش بنحو كيلو متر على يمين الصاعد نحو ثنية العقاب قبة يسمونها قبة العصافير (انظر الرسم) ، لا يعرف أحد سبب هذه التسمية ولا سبب وجود هذا البناء المنفرد الغريب

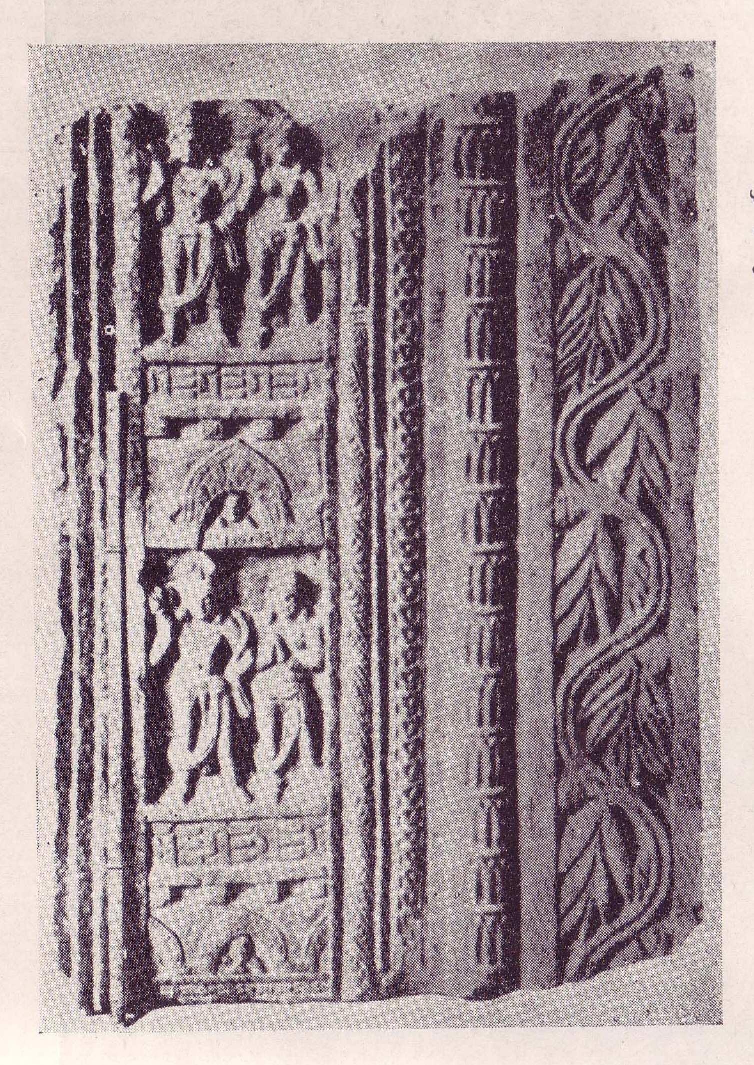


قبة العصافير

اللوح (٢٦)



الصورة ١ — حواشي معمارية، تدمرية الأصل. وهي الآن في متحف دمشق .



الصورة ٢ — : نحت مصدره جالپور في شمال غربي الهند ، وهو الآن في متحف لاهور .

الشكل وسط هذا المكان الثاني الى ان كتب المستشرق السيد سوفاجيه المومأ اليه في نشرة أصدرها المعهد الافرنسي الأثري في القاهرة تحت عنوان :

Le Monumment commemoratif d'époque mamlouke .

سنة ١٩٣٤ ما نعربه بتصرف وان لم نقنع بتعليله تماماً . قال :

بناء صغير مربع ، كل ضلع منه ٤،٨٠ متراً بني بحجارة غشيمة متوسطة الضخامة ، وفوقه قبة من الحجر الغشيم ايضاً موضوعة على طنبور مثمن الاضلاع في كل جبهة منه نافذة ، كما ان في كل من الجدارين الغربي والشرقي للبناء نافذة . وفي الجدار الشمالي قد فتح باب علوه عن الارض ٩٨ سنتيمتراً كان فيه درج قد اندثر ، وفي الجدار الجنوبي محراب صغير بسيط جداً .

ليس في هذا البناء اي مزية تلفت النظر من الوجهة المعمارية . إلا ان شكل بنائه وطرز تربيعه يدلان على انه من المباني التي شيدت في دمشق في القرن الرابع العشر الميلادي ، وعلى عتبة بابه قد زبرت الكتابة الآتية :

بسملة . عمرت هذه القبة المباركة بالنصر في ايام مولانا السلطان الملك الناصر . . . ناصر الدنيا والدين محمد عز نصره باشارة المقر العالي السيفي مولانا ملك الامراء . . . في شهر شوال سنة احدى وأربعين وسبعمائة .

ان هذه السنة ٧٤١ هي التي مات في اواخرها الملك الناصر محمد ، ويظن ان ملك الامراء المذكور هو نائب الشام سيف الدين تنكز الذي عزل قبل تاريخ هذه الكتابة . وقد تعددت الآراء في تفسير الغاية من هذا البناء . فهو وان شابه الأضرحة ، لكنه ليس بضريح ، إذ لا يوجد فيه قبر ، كما انه ليس بمسجد ، لصغر مساحته . على ان كلمة (المباركة) المزبورة على الباب تدل على ان هذه القبة بنيت لتبريك ذكرى تاريخية لعلها هزيمة جيش المغول في ضواحي دمشق (في معركة مرج الصفر قرب شقحب) في نيسان سنة ١٣٠٣ م (٧٠٣ هـ) .

وقد كانت التواريخ ذكرت عن المغول انهم لما انهزموا مشتتين نحو طريق القريتين ذبحت فلولهم بين الجبال ، فلعل موقع قبة العصافير الذي هو باب الجبال هو الذي حدثت فيه مذبحتهم فبني فيه هذا البناء بعد اربعين سنة . واذن هو شاهد النصر لمعركة كبرى شبيه بشاهد النصر الذي بني في عين جالوت (قرب بيسان) . اهـ .

وبعد قبة العصافير تبدأ ما يسمونه طلعة الثنايا او ثنية ابو العته ، وقد كانت تسمى قديماً ثنية العقاب كما قدمنا . قال ياقوت في معجمه : الثنية في الاصل كل عقبة مسلوكة في الجبل

وهذه سميت بالعقاب ، لان خالد بن الوليد لما وصل اليها قادماً من العراق الى دمشق وقف عليها ناشراً رايته ، وهذه كانت لرسول الله ﷺ كانت تسمى العقاب علماً لها . وإذا صعد السائر في هذه الثنية المحصورة بين جبل ابو العته والجبل المطل على المعيصرة وتطلع وراءه يرى مرج عذراء وسهوله الخضر وبحيرة العتيبة ذات المياه الزرق . وفي غربي المرج غوطة دمشق وفي جنوبه الجبل المانع والجبل الاسود والبراري الممتدة نحو جبل حوران واوعار اللجاة والصفاة ، وفي شرقيه البراري الممتدة نحو ديرة التلول وفيافي الحماد . وتعد ثنية العقاب باب دمشق ، لان منها كانت تمر الجيوش القادمة من الشمال والخارجة منها . وقد حدث في العصور الغابرة فيها وفي مرج عذراء عند سفحها بين قاصدي الاستيلاء على دمشق والمدافعين عنها وقائع هامة فصلتها التواريخ العربية منها الوقعة بين ابي الجيش خمارويه بن طولون ومحمد بن ابي الساج احد قواد العباسيين في سنة ٢٧٣ ﻫ وكانت الدائرة فيها على ابن ابي الساج ، والوقعة بين الاخشيد محمد بن طغج وسيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٢٥ ﻫ وكانت الدائرة فيها على سيف الدولة الذي انهزم وعاف دمشق الى الابد . والوقعة التي ذكر سوفاجه انه ذبحت فيها فلول المغول المهزمين من معركة مرج الصفر كما قدمنا . وفي مرج عذراء وقعت معركة كبيرة في سنة ٥١ ﻫ بين الزبيرية والمروانية قتل فيها حجر بن عدي بن جبلة الكندي ، كان له ضريح في عذراء عفيت آثاره .

وتمتد شمالي بلدة دومة من الغرب الى الشرق سلسلة آكام صخرية متوالية تعد من اعضاد جبل قلمون الاسفل ، وفي آخر هذه السلسلة من الشرق جبل منفرد شاهق الذرى صعب المنحدر يظهر من بعيد كأنه مخروطي الشكل يعلو ١٥١٥ متراً عن سطح البحر ويدعى (جبل ابو العته) ، في ذروته اشارة هندسية للمساحة محاطة بجدران اربعة . وهناك فيما قيل مغارة عميقة منقورة في الصخر يهبط اليها باحدى عشرة درجة لا يعلم سبب حفرها واسم حافرها ، هل كانت صهريجاً للماء ام لغاية اخرى ، كما لا يعلم احد سبب تسمية هذا الجبل بابي العته وفي رواية ابي العفاء ، والاسمان لم يردا في تواريخ دمشق القديمة كما لم يرد فيها ذكر لهذا الجبل على قربه من دمشق ومن ثنية العقاب وما جرى حوله من المعارك .

وصف بعض القرى الامهات :

منها في ناحية دومة قرية حرستا وتدعى حرستا البصل تمييزاً لها عن حرستا اخرى اسمها حرستا المنظرة او حرستا القنطرة . ذكرها ياقوت في معجمه انها قرية عامرة وسط بساتين دمشق ، وهي على طريق السيارات العام بينها وبين دومة اربعة كيلو مترات ، وسط سهل

فسيح يكثر فيه شجر الزيتون . ولأجل هذا كان اسمها القديم حرستا الزيتون . كما تكثر فيها الآن الطرق الصوفية كالشاذلية والرفاعية والنقشبندية وامثالها . وفيها مسجدان لهما مأذنتان رفيعتان حديثتا البناء تظهران من بعد . واكثر اهلها مسلمون وقليلهم مسيحيون . وقد نشط عمرانها في جهتها الجنوبية على طرفي طريق السيارات القادمة من دمشق . وفي شمالي القرية عدة مغاور وخزانات قديمة لحفظ ماء المطر . وفي مكان اسمه الاجرام على بعد ٤ ـ ٥ كيلومترات نحو الجبل خربة اثرية هي مقبرة لقرية كانت الى جانبها قبل الاسلام فدثرت على ما يظن . وقد كان اهل حرستا ينبشونها ويستخرجون منها بعض الخزف والأواني والأساور والخواتم وغيرها ، حتى لم يبق منها الآن ما يستحق الذكر .

وفي حرستا عدة مزارات لمشايخ نكرات كالشيخ ابراهيم والشيخ ابو شوشة . والاول اجل قدراً يقصد من بقية قرى الغوطة بالطبول والاناشيد كما ان النساء يتوافدن عليه ويقدمن النزور لشفاء اولادهن من الامراض . ويقول ياقوت في معجمه ان حرستا انجبت في زمنها عدة علماء وقضاة ، اشهرهم القاضي جمال الدين بن عبد الصمد الانصاري ، كان في القرن السابع من اعظم فقهاء عصره ، وكان ولي القضاء في كهولته ثم تركه ، ووليه بعد ان جاوز التسعين عاماً وذلك بالزام الملك العادل ابي بكر بن ايوب صاحب مصر والشام ، ومات وهو قاضي القضاة سنة ٦١٤ عن ٩٤ عاماً . وكانت سيرته في العدل مضرب الأمثال .

وممن نبه في حرستا الحسن الشيباني والد الامام ابي عبد الله محمد احد اصحاب الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان . وقد كان الحسن الشيباني نزح من حرستا الى بغداد فولد ابنه محمد سنة ١٣٥ وتتلمذ على الامام الاعظم وضبط وحرر علمه الى ان توفي سنة ١٨٩ . وفي زماننا صارت حرستا تنجب شباناً متعلمين ، ومن ابنائها في مدارس دمشق الثانوية والعالية الآن نحو خمسين فهل ينشأ منهم خلفاء للانصارى والشيبانى المذكورين ؟ ذلك مانرجوه .

ومن امهات القرى ايضاً مسرابا وهى قرية غناء ذكرها ياقوت ايضاً اشتهرت بثمارها وورودها فانها وافرة ومتنوعة . ومنها عذراء ، وهى قرية كبيرة في شرقي الناحية تعد مرجية لاغوطية ، وهى قديمة فيها اطلال مباني واحجار اثرية ، ذكرها ياقوت وضبط اسمها بالذال وفسره بالدرة العذراء التي لم تثقب ، وقال اليها ينسب مرج عذراء . واذا انحدرت من ثنية العقاب واشرفت على الغوطة فتأملت على يسارك رأيتها اول قرية تلي الجبل ، وبها منارة ، وبها قتل حجر بن عدي الكندي وبها قبره وقيل انه هو الذي فتحها .

وفي جنوبي عذراء على بعد خمسة كيلومترات عنها قرية ميدعا . وهذه ايضاً مرجية كبيرة ذكرها ياقوت وقال انها كانت لمعاوية ابن ابي سفيان وسكنها احد خلفاء الامويين من احفاده .

يتبع